ابن القيم ..

حياته وآثاره ..

وآراء العلماء فيه .

obeikan.com

obeikan.com

ابن القيم ، حياته ، وآثاره
وآراء العلماء فيه

ابن قيم الجوزية ، هو : العلامة شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعى ، ثم الدمشقى ، الفقيه الحنبلى المفسر النحوى ، الأصولى المتكلم ، الشهير بابن قيم الجوزية .

وجاء فى كتاب « جلاء العينين » للسيد نعمان الآلوسى البغدادى ، عنه : هو المجتهد المطلق . . درس بالصدرية ، وأم بالجوزية .

قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة هجرية ، ولازم شيخ الإسلام العلامة : تقى الدين ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن فى كافه علوم الإسلام .

وكان عارفًا فى التفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق فى ذلك .

وفى الفقه ، والأصول العربية له فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام والتصوف ، ولم أشاهد مثله فى عبادته وعلمه بالقرآن والحديث ، وحقائق الإيمان ، وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر فى معناه مثله .

وأخذ العلم عنه خلق كثير فى حياة شيخه وإلى أن مات ، وانتفعوا به .

قال القاضى برهان الدين الزرعى : وما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه، وأوذى وعذب فى سبيل الله ، وسجن ، وصبر حتى مرت المحن ، وانتصر دين الله سبحانه .

❊ ❊

● وفاته :

توفى - رحمه الله تعالى - ثالث عشر من رجب ، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير ، جزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه .

● من كتبه القيمة :

١ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، تصحيح الشيخ عبد الله بن حسين آل الشيخ ، طبع المنيرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ .

٢ - أحكام أهل السُّنَّة ، تحقيق الدكتور صبحى الصالح ، طبع جامعة دمشق سنة ١٣٨١ هـ .

٣ - أسماء مؤلفات ابن تيمية رحمه الله تعالى - تحقيق : د . صلاح المنجد - طبع دمشق ١٣٧٢ هـ .

٤ - أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق الأستاذ الشيخ : محيى الدين عبد الحميد - طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٤ هـ .

٥ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، تحقيق الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقى ، طبع مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٥٧ هـ .

٦ - إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان ، تحقيق الشيخ : محمد جمال القاسمى - طبع مطبعة النهضة بمصر .

٧ - بدائع الفوائد : أربعة أجزاء ، طبع المطبعة المنيرية بمصر بدون تاريخ.

٨ - التبيان فى أقسام القرآن ، تصحيح الأستاذ : طه شاهين ، طبع دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٨ هـ ، وطبعة تالية لدار الكاتب العربى بدون تاريخ .

٩ - تحفة المورود فى أحكام المولود ، تحقيق الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط، نشر مكتبة دار البيان سنة١٣٩١ هـ .

١٠ - تهذيب مختصر سنن أبى داؤد ، تحقيق الشيخين : محمد حامد الفقى، وأحمد شاكر ، طبع مطبعة أنصار السُّنَّة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٦ هـ .

١١ - جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، تصحيح الأستاذ طه شاهين ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٨ هـ .

١٢ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، تصحيح محمد الربيع ، مطبعة محمد على صبيح بمصر سنة ١٣٨١ هـ .

١٣ - حكم تارك الصلاة ، طبع مطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٩٤ هـ .

١٤ - الداء والدواء ، تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ، مطبعة المدنى بمصر سنة ١٣٧٧ هـ .

١٥ - الرسالة التبوكية ، تحقيق الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ، طبع مطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٧هـ .

١٦ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، تحقيق الشيخ أحمد عبيد ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

١٧ - الروح ، طبعة محمد على صبيح بمصر ، سنة ١٣٨١ هـ .

١٨ - زاد المعاد فى هدى خير العباد ، طبعة مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٦٩ هـ .

١٩ - شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، تصحيح الحسانى عبد الله ، طبع أنصار السنة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٠ - الصواعق (المرسلة) المنزلة علي الجهمية والمعطلة ، طبع المختصر منه لمحمد بن الموصلى ، بمطبعة الإمام بمصر سنة ١٣٨٠ هـ .

٢١ - طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، الطبعة القطرية .

٢٢ - الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، طبعة الاتحاد الشرقى بدمشق سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٣ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، تصحيح زكريا على يوسف ، مطبعة الإمام بمصر .

٢٤ - الفروسية ، تحقيق الأستاذ عزت العطار الحسينى ، طبع عام ١٣٦ هـ .

٢٥ - الفوائد ، تصحيح عمر بن عبد الجبار ، طبع دار مصر للطباعة .

٢٦ - الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية . . مع شرحها للشيخ : أحمد بن عيسى النجدى ، طبع المكتب الإسلامى ، بدمشق سنة ١٣٨٢ هـ .

٢٧ - مدارج السالكين بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » . . ثلاثة مجلدات ، طبع الشيخ محمد الفقى - بمطبعة أنصار السنة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٨ - مفتاح دار السعاده ومنشور ولاية العلم والإرادة . . طبع محمود حسن الربيع ، سنة ١٣٥٨ هـ ، نشر مكتبة الأزهر بمصر .

٢٩ - المنار المنيف فى الصحيح والضعيف ، طبع دار القلم ١٣٩٠ هـ .

٣ - الوابل الصيب من الكلم الطيب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وإبراهيم الأرناؤوط ، نشر مكتبة دار البيان بدمشق طبعة عام ١٣٩٣ هـ .

٣١ - هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٣٢ - وصدر حديثًا « التقريب لفقه ابن قيم الجوزية ، للأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد ، طبع دار الهلال بالرياض سنة ١٤٠١ هـ .

* *

● آفاق ابن القيم العلمية وعصره :

ابن القيم من علماء السَّلَف الذين يعتبرون - بما تركوا من آثار علمية -

دوائر معارف إسلامية ، تخرج فيها - وما يزال يتخرج - العديد من العلماء ، ورواد الفكر الإسلامى ، وذلك يرجع إلى : تتلمذه على شيخه - شيخ الإسلام - ابن تيمية ،مع موهبته واستعداده ، وقدراته ، ورسوخه فى العلم ، وغزارته فى العطاء ، ودقة الفهم ، وحسن التأتى فى الاستنباط والاجتهاد والعرض ، وسعة المعارف وتنوعها .

مع أنه كان فى كل منها عالمها الألمعى ، وهذا - بحق - لم يتوافر للكثير من علماء السَّلَف ؛ لأن عصر ابن تيمية وابن القيم ، لم يكن مفروشًا بالورود، ومن هنا ندرك قيمة آثار كل من الشيخين سواء من الناحية الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية ، وكانت للأشواك الغلبة من فلسفات واردة تريد أن تنال من الإسلام ، وصوفية جانحة ، وآثار الحرب الصليبية ، ثم غزو التتار ، وتفكك الوحدة السياسية للأمة المسلمة ، ولذلك اضطهد شيخ الإسلام وسجن ، وتوفى وهو فى سجنه ، واضطهد معه وبعد وفاته تلاميذه ، وفى مثل هذا الجو تظهر قيمة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم العلمية ، من حيث الكم والكيف أيضًا ، وقد قال لى - يومًا - أستاذى الدكتور محمد البهى : رحمه الله - إن ابن تيمية وتلاميذه كانوا فى ذلك الوقت هم الذين يضربون بسيف محمد بن عبد الله - ﷺ - وحدهم فى وسط الظلمات المتراكمة حول العالم الإسلامى.

وكان هدف ابن القيم إصلاح العقيدة التى فسدت فى عصره ، فقد غزا التتار البلاد ، وحطموا القيم الفكرية والخلقية ، وكان لا بد من العلم والفهم والقلم والعزيمة الماضية لتقف أمام الغزو التترى الغاشم وآثاره لحفظ عقيدة الإسلام .

* *

وعرض لابن القيم فى مجال اللُّغة فقال : « إن طلاب الثقافة والمعرفة الإسلامية عرفوا ابن القيم عالمًا حجة فى شتى المعارف الإسلامية ، ولكن لم

يعرفوه لغويًا بمعنى الكلمة ، والمعروف أن علماء الإسلام من السَّلَف كانوا على علم باللغة العربية بشتى فروعها ، باعتبارها جزءًا غير منفصل عن الفكر الإسلامى ، ولكن ابن القيم فى مجال اللغة اعتبر لغويًا فى المقام الأول : ربما لأن اشتغاله بالتفسير حمله على الاهتمام بأسرار اللُّغة ، من منطلق التحليل لآى الذكر الحكيم وكلماته .

وذلك لأن اللُّغة والشريعة ترتبطان برباط وثيق ، إذ كانت اللُّغة - وستظل - هى وسيلة الأداء . . المعبرة عن الإدراك أو الفكر والوجدان ، وليس من المتصور أن يتصدى دارس للشريعة الإسلامية - مثلاً - دون أن يتعمق فى لغة هذه الشريعة ، وقد عربت العربية كل بلاد دخلتها . . وما تفرق المسلمون وهانوا بعدئذ إلا لأنهم أهملوا العربية وتركوها نسيًا منسيًا .

فضلاً عن أن كتاب الله والسُّنَّة النبوية هما الركيزة الأولى لأسرار اللغة العربية بشتى أصولها وفروعها .

ومنهج ابن القيم فى التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن وهو منهج شيخه ابن تيمية ، والإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنهم ، وهذا المنهج هو المنهج الأمثل فى التفسير . وبعض المحدثين من علمائنا - من منطلق هذا المنهج - اتجه فى التفسير إلى البحث عن الوحدة العضوية أو الموضوعية للسورة القرآنية ، ومنهم الشيخ محمود شلتوت ، والدكتور محمد البهى - رحمهما الله تعالى . وربما كان حرص الأخير على هذا المنهج ، هو الذى جعله يبدأ فى تفسير السور المكية ، لا لأنها أول القرآن نزولاً ، بل لأنها اختصت بمرحلة معينة وبيئة معينة ، وأغراض معينة .

وامتاز ابن القيم فى تفسيره بتحليل الكلمات وإرجاعها إلى مدلولها اللُّغوى وتصريفها واشتقاقها كما سنرى فى النماذج المختارة له .

* *

يقول الأستاذ محمد السماك : إن العرب اهتم كثيرًا بما نسميه « الأعمال الكاملة »

لفلان من رواد الفكر عندهم ، ونحن هنا نتابع اهتمام الغرب ، فنترجم تلك الأعمال الكاملة « لشكسبير » مثلاً . . . . وللأسف نتجاهل الأعمال الكاملة لمفكرينا الإسلاميين من سلفنا ، ولدينا - والحمد لله - عشرات المؤسسات الرسمية التى تهتم بإحياء التراث ، ولكن الذى ننشده : هو عملية تحقيق للأعمال الكاملة جملة واحدة ، لكل علم من أعلام علمائنا ، وبخاصة السلفيين منهم .

وهناك جهود فردية تبذل ، إلا أن مثل هذا العمل يحتاج إلى لجان من العلماء المتخصصين ، يعملون أيضًا على تقسيم الأعمال بروح نزيهة حيادية ، ومنهج علمى موضوعى ، لا أثر فيها للعاطفة أو المجاملة .

وهذه أعز أمنية يتمناها الشباب المسلم ، فهل ستحقق أم نظل نردد قول الشاعر :

مـا كل ما يتمنى المرء يدركـــه تجرى الرياح بما لا يشتهى السُّفُنْ

وكلمة الأستاذ السمان كلمة طيبة من أستاذ فاضل .

* *

ولابن القيم كتاب قيم هو : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . .

وقد حوى من ألوان المعارف وقطوفها وفنونها ، ما يتشوق المسلم إلى معرفته ، وقد اقتبس منه كثير من المؤلفين والوعاظ والكتاب ، ما جعل لهم شهرة واسعة ، يقول رحمه الله تعالى فى تقديمه :

« وقد جلبت إليك فيه نفائس ، فى مثلها يتنافس المتنافسون . .

فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله ، وشدة الحاجة إليه ، وشرف أهله وشرفه ، وعظيم موقعه من الدارين .

وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات ، تلج القلوب بغير استئذان . ومعرفة حكمته فى خلقه وأمره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة والحاجة إليها ومعرفة جلالتها وحكمتها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها ، بل وضرورة الوجود إليها ، وأنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلى العالم عنها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح ، وأن ذلك أمر عقلى فطرى بالأدلة والبراهين التى يشتمل عليها هذا الكتاب فلا توجد فى غيره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم ، وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التى لا جواب لهم عنها ، وإبداء تناقضهم فى صناعتهم وفضائحهم وكذبهم .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر ، والفرق بين صحيح ذلك وباطله ، ومعرفة مراتب هذه فى الشريعة والقدر .

وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة ، مما تكمل به النفس البشرية ، وتنال به سعادتها فى معاشها ومعادها . . . إلى غير ذلك من الفوائد التى ما كان منها صوابًا فمن الله وحده هو المان به ، وما كان منها من خطأ فمن مؤلفه ، ومن الشيطان ، والله برىء منه ورسوله » [1] أ هـ .

* وكلمته السابقة كلمة جامعة تنبئ عن سعة مداركه ، وحثه على الفضيلة ، والدفاع عن الشريعة ، وبيان ما هو ضرورى لكمال الإيمان بالله ، وتجليه بعض حكم الله تعالى فى خلقه ، وعظيم نعمه .

---

(١) كتابه « مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية العلم والإرادة » ط ثالثة ١٣٩٩هـ

وأبحاثنا هذه مستقاة من كتابه : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » ، وكتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ، ورسائل أخرى .

ثم التصدى للماديين والملحدين ، والمشعوذين والمعوقين فى كل زمان ومكان ممن يعيشون فى الظلام ، وهمهم جمع الحرام . .

ثم يتواضع كعلماء زمانه الأفاضل ؛ فينسب ما كان من كمال وحسن فى كتابه إلى الله تعالى ، وما كان من خطأ فمرجعه إليه لتقصيره وإلى الشيطان الرجيم . . ويحتاط فى كل مسألة بعد بيانها بقوله : « والله أعلم » . . ومعنى هذا فى إيجاز أن علماءنا كانوا واعين ومقدرين وناهضين بالمهمة التى ألقيت على كواهلم ، وهى بناء الإنسان والحضارة والتاريخ ، وإعلاء شأن الدين الحنيف .

● والخلاصة .

إن ابن قيم الجوزية - تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية - أحد العلماء الأفاضل الذين دافعوا عن الإسلام ونشروا العلم وحفظوه ، ومن الذين أخلصوا لله تعالى فزادهم هدى ، وآتاهم تقواهم . . واتقى الله فعلمه الله تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (١) ، حتى وصلنا هذا الفيض من الكتب والمعارف النافعة والهادية .

فنسأل الله أن يجزيهم عنَّا وعن الإسلام خير الجزاء .

د . توفيق محمد شاهين

* * *

(١) البقرة : ٢٨٢